الدستور لعامين

خطبة القاها على اهالي بيروت حضرة الفاضل سليمان افندي البستاني سبعوث بيروت

مضى على اعلان الدستور سنتان ويعلم القاصي والداني ما هي حالة الدولة العثمانية قبل اعلان الدستور · ادارة مختلة بلغ تشكي العثمانيين منها عنان السماء · رشوة وارتكاب وظلم واعتساف · اموال تستنزف من عرق جبين الفقير وتسرب الى جيوب ظلام يبذرونها في سبيل اللهو والفحشاء · وفوضى سائدة في البلاد من اقصاها الى اقصاها لا وازع يزع ولا قانون ينفذ · واراض بائرة تضن بذرة من جوهرها المدفون على اصحابها المنتشرين على وجهها والثالثة معظمهم عليها ولا تيه بني اسرائيل · وانهار تذهب مياهها هدراً فتفيض في المنتقعات فتفسد على الاهلين معيشتهم وتضعف ابدانهم بدلاً من ان تدر لهم بالذهب الوضاح · وغشمة ظلام يتحكمون برقاب العباد فيضيقون عليهم العيش ويشربون انفسهم بغض الدولة التي تسوقهم سوق الانعام · وتعصب ذميم تتخاذل به الاقوام المختلفة العناصر والاديان وتود لو يأكل بعضها بعضاً · وضغط على الافكار اشد من ضغط الرق · والاستعباد لا يشعر الانسان معهُ انهُ انسان بل يودُّ في بعض الاحيان لو يكون حيواناً هائماً على وجهه متمتعاً بحريته · ومالية فارغة صناديقها فلا مال لانشاء مدرسة ولا لاصلاح طريق ولا لانشاء شيء مما يصلح حالة البلاد زراعةً وتجارةً حتى ولا لدفع معاش صغار المأمورين ومن ورائهم العيال فباتوا على ذلتهم مضطرين الى الظلم والارتكاب متخذين لهم بذلك اسوة بمن فوقهم · تلك كانت حالة البلاد الادارية

ولم تكن الحالة السياسية باقل وبالاً على البلاد منها · سياسة خرقاء أغضب بها العدو والصديق حتى كادت اجزاء هذا الملك الفسيح تتفكك من تلقاء نفسها فتذهب طعمة للذئاب الفاغرة افواهها لتلتهمها لقمةً لقمةً · اختلال في مكدونيا كاد يؤدي بها الى الاضمحلال ويضرب السلم العام ضربةً قاضية ترتج لها اقطار العالم · ولو لم يقيض الله قيام ابطال الحرية بمؤازرة جمعية الاتحاد والترقي لكانت اول الاجزاء المنحلة من هذا الجسم العظيم واخذ بالانحلال ما وراءها من سائر الولايات · واضطراب في اليمن كاد يفصلها فصلاً باتاً عن هذا المجموع ثم يثير بين اهليها انفسهم حرباً عواناً تدمر البلاد وتفني العباد · وثوران بين عشائر البادية في العراق تبور معهُ الارض وتزهق الارواح · واختلال في بلاد الارنؤوط ذهب بسلطة القوة الحاكمة فجعلها هباء منثوراً · واضطراب في سائر الولايات جعل الفوضى سائدة

في كل ارجاء الدولة ، وميل من الدول الى فصل كريت فصلا نهائيًا يضعف سيطرة الدولة في البحر المتوسط

كل هذا والجيش محصنا المنيع يتضوّر جوعًا ويشكو العراء وهو مع ذلك راضٍ ببذل ما فيه من بقية رمق في سبيل الدفاع . ولكن هيهات ان يكون ذلك ميسراً له وليس في مستودعاته من الذخيرة والسلاح ما يسهل له سبل الدفاع والكفاح لو شبت يوشذٍ نيران الحرب في داخل البلاد او خارجها اذ قد ثبت ايام الدستور ان نفس الذخيرة التي بين يديه لا تصلح لصدّ هاجم او دفع عدوّ . حتى لو ثارت حينئذٍ حربٌ من الحروب مع اية دولة من الدول لهدرت دماء تلك الابطال ولم تغن فتيلاً في صيانة البلاد كما صرّح بذلك بطل الحرية شوكت باشا في مجلس المبعوثان . على ان العناية ارادت حفظ هذه المملكة فأعمت بصائر الاعداء عن النظر الى موقفنا الحرج فافسحوا لنا مجالاً للنظر في الاصلاح فهيئنا اليه وانّا بالمؤمن متهُ اقصى المرام بعد زمن يسير باذن الله

هذا لو تيسر لنا بعد ما نتقدم ان نقول اننا قد قطعنا في سبيل الاصلاح شأواً لقرّ له عين العثماني . ومع هذا فاننا بمقابلة حالتنا الحاضرة مع ما كانت عليه قبل سنتين نرى ان المسافة التي سلكناها في هذا الزمن اليسير لم تسلكها من قبلنا امة من اعظم امم الارض باضعاف هذه المدة بعد اعلان دستورها . فهذه الادارة الداخلية قد انتظمت انتظاماً وان يكن بعيداً عن حد التمام لم يبشر بالفلاح القريب . فان دابر الرشوة قد قطع الكثير من عروقه السامة ولا يلبث بعون الله ان تستأصل شأفتهُ بزمن غير بعيد . وهؤلاء الظلام المستبدون المتحكمون في رقاب اخوانهم قد باتوا يشعرون انهم مساوون لهم في الفروض والحقوق ولا يجسرون ان يعتبروهم مخلوقين من طينة غير طينتهم فقصرت ايديهم عن سلب اموالهم والعبث بحقوقهم . وهذا التعصب القسيم قد اخذ يزول ويضمحل فعلم جميع العثمانيين الا اسفل الجهال انهم اخوان تجمعهم جامعة واحدة وتظلهم سماء واحدة ويرمون جميعاً الى غاية دنيوية واحدة . وهذه بيروت وقد كان فيها هذا الداء عياء اصبحت مثالاً يضرب بالتكاتف والتعاضد والتحاب كأن تلك الجرثومة الفاسدة قد اجتثّت وباد اصلها وفرعها . وهذه نعمة الحرية التي لم نكن نحلم بها اصبحنا ونحن مشتملون بها آمنين على اموالنا ان تصادر واجسامنا ان تؤذى وافكارنا ان يضغط عليها واقلامنا ان تكسر وجمعياتنا الخيرية ان توصد ابوابها ومدارسنا ان تدرس حتى لقد قال الكثيرون من سائحة الافرنج المتسرعين منا انكم لو لم تبلغوا

في هاتين السنتين الا هذا المبلغ العظيم من الحرية لوجب عليكم ان تقنعوا به وهو وحده كفيل لكم بنيل سائر ما تبقى في ما بقي من الزمان

ثم اذا نظرنا الى داخل البلاد نقول ولا نبالي بانتقاد اننا بلغنا مبلغاً يعدّ من باب الخوارق في مثل هذه الاحوال . فهذه مكدونيا التي لم يكن بيننا وبين الانفصال عنها الا اشهر بل ايام رجعت الينا ورجعنا اليها ووثقت بنا ووثقنا بها اننا جسم واحد وروح واحدة . وهذه اليمن التي كانت مجزرةً يتذابح بها الاخوان قد توطد فيها الامن وسيظل كذلك ويزداد . ولن ننسى ما كان في الامس من هبوب اخواننا اليمانيين والعراقيين والحجازيين للتطوع في جنديتنا هبوب المتفاني في مناصرة اخيه في وقت الضيق . وهذه بلاد الارنؤوط قد استتب فيها الامن فسلّمت السلاح وباشرت تحرير النفوس والانشاء الى زراعتها والنظر في شؤونها ولعلهُ لم يخفَ عليكم انها في ابان ثوراتها هبّت ابناؤها لمناصرتنا مناصرة ابناء الحجاز والعراق اثناء انذار الاحوال بخطرٍ محدقٍ بنا بتبشكم ذلك بما كان في نفوس جميع العثمانيين من حبّ التكاتل وان اثار المفسدون حيناً بعد حين نيران التخاذل فيما بينهم . وهذه الفوضى المنتشرة في سائر الولايات قد خمدت او كادت ولا ريب عندنا ان اخواننا الحورانيين لا يضطرّوننا الى مناهضتهم بل يذعنون اذعان الابن المخطىء النادم ويحلّون بيننا اخواناً مكرّمين معزّزين . وهذا الجيش الباسل الذي كان بالامس يتحمل كل الضيم وهو كاظم غيظهُ باذل دمهُ على ضعف املٍ قد اصبح الآن وهو آمن على راحته ايام السلم وواثقٌ كل الوثوق باستكمال عدته وذخيرته ايام الحرب فهو الحصن الحصين الذي احرز لنا بنظر سائر الدول مقام الاحترام الذي لا يستهان . وهذه بحريتنا التي كانت لايام مضت اخشاباً مسندة تخشى تحريكها خوف ان تغوص بمن فيها الى قاع البحر قد اصبحت الآن اسطولاً نرجو ان يتم القائهُ بوقت يسير وانّ جميع الذين شهدوا حركات هذا الاسطول الصغير يوم استعراضه بعيد الحرية كادوا يكذّبون ابصارهم وهي ناظرة الى حركاته في سيره ذهاباً واياباً . وهذه ماليتنا والمأمورون منكم لا يزالون يذكرون انهم كانوا يستعطون رواتبهم استعطاء المتسوّل فلا يحصلون الا على النزر منها قد اصبحوا الآن وهم يتقاضونها لتقاضي مأموري المصارف شهراً بشهر وبعد ان كانوا يبيتون ليلتهم وهم لا يعلمون اينهضون صباحاً وهم باقون على عملهم ام منفصلون عنهُ صاروا وهم آمنون عالمون انهم لا يمسون بسوء الا اذا اساؤوا . وقد يُظنّ ان النقص في ميزانيتنا من دواعي الضعف وسوء الظن بالمستقبل ولكن يتضح لدى الامعان انهُ لا بد من هذا العجز في اول الامر لوفرة المصاريف في هذه الادارة الجديدة وخصوصاً ازاء اصلاح الجندية واستكمال معدّات

الدفاع . على اننا متى تبينا انا في اول طريق الاصلاح المادي ووثقنا بما نراهُ من الآن من ازدياد موارد الثروة التي لم نكد نشرع في استخراجها نعلم علم اليقين انهُ لا تمرّ بضع سنوات حتى تتم الموازنة بين الصرف والمخرج ولا تليها سنوات اخرى حتى ترجح الزيادة . واذا قيل انهُ لم يكد يجري شيء من الاعمال النافعة كمد طرق الحديد وتسيير البواخر التجارية وانشاء المرافىء وتسهيل اسباب الري وما اشبه قلنا ان ذلك صحيح ولكنهُ ليس بخاف انهُ اعترضت البلاد اسباب كثيرة ادّت الى هذا التأخير . ثم انهُ لم يكن بدٌّ من سنّ القوانين اللازمة لتحديد شروط العمل وتسهيل السبل بوجه الشركات الواقفة باموالها تنتظر تصديق تلك القوانين . وقد تيسر لمجلسي المبعوثان والاعيان ان ينظرا في قسم منها كقانون الامتيازات وقانون تشويق الصنائع وسينظر في مبتدإ الجلسة القادمة في سائرها كقانون الاملاك غير المنقولة وقانون الشركات على انهُ قد خُصّ في موازنة هذه السنة مبلغ جسيم لاصلاح الطرق في انحاء البلاد وشُرع في العمل في انحاء كثيرة منها . ومن جملة الطرق المقرر اصلاحها طريق العربات الواصلة بين بيروت والشام والامل انها ستصبح عما قليل صالحة لسير المركبات فيسير عليها الاوتوموبيل بسرعة تفوق بكثير سرعة طريق الحديد الموجودة الآن . وقد يقال ايضاً ان الزراعة وهي روح البلاد لم يجر فيها تحسين يذكر على انهُ لا يخفى ان بلاداً كبلادنا مترامية الاطراف متسعة الارجاء ومعظم ارضها مهمل باثر لا بدع ان تمر السنوات الطوال قبل ان تصلح زراعتها ولكنهُ معلوم ايضاً انهُ يودر الى الاهتمام باصلاح الزراعة بكل الوسائل الفنية والعملية فبثّ المهندسون في معظم الولايات ولاسيما في الخطة العراقية وشرعوا في العمل وارصدت في الموازنة مبالغ عظيمة بالنسبة الى حالة مالياتنا وان كانت قليلة بالنسبة الى حاجتنا اذ لم يكن بالامكان ان يخصص لنظارة مرتباتها السابقة لا تزيد على المئة الف ليرا اكثر من المبلغ الذي خصص لها في عامنا وهو اربعمئة الف ليرا . فانشئت المكاتب الزراعية الجديدة ووسع منها الموجود القديم وبذل الجهد في استجلاب الآلات الزراعية الحديثة وتربية طلاب المكاتب على احدث طرز وخصّت لها قطع مختلفة التربة لتمرّن على الزرع والغرس والاستثمار

واما المعارف وهي اساس كل صلاح وفلاح فقد وجهت اليها عناية وخصّصت مبالغ لاصلاح المدارس الموجودة وانشاء مكاتب جديدة ابتدائية واعدادية وعالية وقرر ارسال بعثات من الطلبة لتلقي العلوم العالية في اوربا يستخدمون بعد اتمام دروسهم في جميع النظارات فيعينون الحكومة والملة على ترقية المعارف وتقوية الجندية واصلاح الزراعة فيقومون مقام

المهندسين في اعمال النافعة . وستتوالى هذه البعثات سنة بعد سنة فلا تمر سنوات الا ولدينا منهم محضرون يتولون اموراً ليس لنا من يحسن القيام بها في الوقت الحاضر . ثم انهُ اذا كانت اللغة العربية هي اللغة التي يتكلم بها قسمٌ عظيمٌ من ابناء هذه الدولة وهي فضلاً عن ذلك لغة الدين الرسمي للدولة فالغاية مبذولة في تعميم تدريسها على اصول جديدة . ولكم يسوء العثماني الصادق ان يسمع قول المغرضين ان الدولة عاملة على قتل هذا اللسان مع انها عاملة بكل قواها على نشره وتعميم تعليمهِ مع اللسان الرسمي وليس ذلك مقصوراً على ابناء العرب بل يتناول ابناء الترك انفسهم وقد التفت لذلك الشأن هيئة خاصة في نظارة المعارف عزمت على ان تدخل في سلكها اعلاماً من المدرسين العرب للبحث في الطريقة المثلى لبلوغ هذه الغاية وخصصت مبلغاً كبيراً لانشاء مدرسة في الاستانة العلية لتخريج الطلبة على هذا اللسان ويتهم مدرسين ومرشدين في جميع البلاد . ذلك اقتراحٌ اقترحهُ مواطننا الفاضل السيد رشيد رضا فتلقتهُ الحكومة بعين الارتياح والفت لهُ لجنة لتم معدَّاتهِ ومن جملة اعضائها مبعوث سينوب حسن فهمي افندي الموجود بيننا الآن

واما العدلية والعدل اساس الملك فالانظار مصروفة اليها وها انتم ترون الجهد المبذول في اصلاح المحاكم وانتقاء المأمورين واستئصال شأفة الرشوة وتعديل القوانين الموجودة ومن القوانين الجديدة على ما يوافق روح العصر ولا يتافى الشرع الشريف . واما موقفنا ازاء السياسة الخارجية فلا يذهب عليكم ما كان من امرنا فكلكم يعلم ما كنا عليهِ من العجز والوهن تتقاذفنا الانواء يميناً وشمالاً ونحن لا نعلم اي منقلب ننقلب بتدخُّل الجميع بشؤوننا الداخلية فيحلون ونكتب ويأمرون وننفذ وهذا شأن كل عاجز ضعيف . على اننا مذ شرعنا في احترام نفوسنا جعلت الدول تحترمنا وجعل مناصرو الانسانية يناصروننا وكفَّ المتدخلون ايديهم عن مدِّها الى ما ليس من شأنهم ان يتعرضوا لهُ ولولا الفتن التي حصلت وقام وقعد لها المرجفون كحوادث مارس الاخيرة توصلنا برضى الدول العظمى الى الغاء قسم عظيم من الامتيازات التي لا تزال تثقل كواهلنا . وان من اهم ما نظرت اليهِ الحكومة ومجلس الامة لمَّ شعث المهاجرين من اخواننا الى الاقطار النائية في اميركا وافريقية وجزائر البحر المحيط الذين يبلغون المليون عدًّا فقد كان معظمهم وهم مبعثرون في اطراف الارض يشكون اغضاء دولتهم عنهم وقلة اهتمامها بشؤونهم بما كان يلجئُ الجمَّ الغفير منهم الى التجنس بالجنسية الاجنبية والتردد عن الرجوع الى اوطانهم ومواصلة العلائق معها . فخشيةٌ من تعاظم هذا الداء وهم اخواننا وابناؤنا يحنُّون الينا ونحنُّ اليهم شُرع في انشاء قنصليات لم تتوطدت لنا بذلك آمال

حفظ هذه العلائق . وكان لنا من جملة نتائجها العالة في السياسة الخارجية ان خطونا خطوة كبيرة في سبيل الغاء الامتيازات الاجنبية اذ كانت المعاهدة التي عقدت بيننا وبين حكومة الارجنتين الليلة تقضي بالمساواة التامة بين امتياز فريق عن فريق . وسيتبع هذه المعاهدة معاهدات كثيرة مثلها الى ان يقيض الله الغاء جميع هذه الامتيازات شيئاً فشيئاً والامل بالله كثير ان لا يمرّ زمن طويل حتى تكون الدول العظمى المتحابة معنا في الطالبة لنزعها كما جرى في اليابان

واما علاقاتنا مع سائر الدول فقد اصبحت على حال من التوادّ لم يسبق لهُ مثيل . ليس لنا ارتباطٌ خاصٌ بفئةٍ دون اخرى ولا تحالف مع دولة او دول معينات ولا اخال زمان هذا التحالف قد آن لحسبنا الآن ان تقوي مركزنا وتستميل العالم الى احترامنا واحترام قوانيننا كما استمالهُ باعلان الحرية والمساواة بشر الدستور ولولا هذا المبلغ الذي بلغناهُ والحب الذي احرزناهُ بلا اثارة حربٍ ولا سفك دماء لعلم الله ما كانت حالتنا . ولقد سمعنا باذاننا من اكبر ساسة الغرب انهُ لولا اعلان الدستور وثقة الدول بنا واملها الوطيد بالاصلاح لكان العلم الاجنبي خافقاً منذ زمن على كريت وربما على ما وليها من جزر البحر المتوسط

ذلك هو مجمل موقفنا الداخلي والخارجي في الوقت الحاضر ومع ذلك فاننا لا نزال في اول طريق الاصلاح وان المرحلة التي قطعناها ليست بالشيء المذكور بالنسبة الى ما تبقّى من هذه الشقة البعيدة . فاذا استثنينا الجندية التي اصبحت بهمة ناظر حربيتنا واعوانهِ البواسل وبسخاء الامة في موقف يسرّ المحب ويسوء المبغض رأينا أنّ كلّ ما اتيناهُ حتى الآن قطرة من بحر . فالمعارف في معظم البلاد في احط الدركات والجيل محيمٌ على الفريق الاعظم من اخواننا في البوادي والحواضر . والزراعة وهي مدار معيشتنا لا تزال في طفوليتها ولم تجنِ حتى الآن شيئاً من ثمار المساعي الجمّة التي بُذلت . ومعظم المعادن لا يزال دفيناً في بطن الارض . وسائر موارد الثروة لم يكد يستثمر منهُ شيء . وطريقة تحصيل الضرائب والاعشار لا تزال في حالة تستوجب النظر البعيد . والمالية وان كانت وارداتها في ازدياد مستمر من دخل الرسومات وعوائد الاملاك وتعداد الاغنام وغيرها لا تزال على ساحل بحر الزيادة التي نرجوها . والبلديات لا تزال على فقرها والطرق على وعورتها . والانهر على ضياع مياهها . والادارة العامة لا تزال في حاجة الى تحسين عظيم يجب ان يعلم ذلك كل فرد منا لان من لا ينظر الى الداء لا يبادر الى الدواء وليست الحكومة وحدها امتها بالمسؤولين الوحيدين بالاصلاح فعلى الامة ان توازرها بكل قواها وعلى اصحاب الثروة بنوع خاص ان يطلقوا

سراح قسم من الدراهم المحبوسة في صناديقهم ولو يسيراً فيعينون الحكومة على نشر المعارف ولهم بذلك الاجر والفائدة المعنوية واذا ارادوا الفائدة المادية فان في البلاد اعمالاً تدر عليهم بالاموال فلينشطوا الى القيام بها فينفعون وينتفعون

ولا ريب ان حكومة هذه مساعيها ومجلس أمة تلك هي امنيته ومن ورائهما امة ذكية نشيطة متفانية يحب الوطن نظيركم تعقد عليها الآمال بانها ستسير سيراً حثيثاً يؤدي بوقت قصير الى حسن المصير

لقد كثر التساؤل عن اعمال مجلس المبعوثان منذ انعقاده حتى الآن . وعن انتظامه ومباحثاته وفرقه الى غير ذلك مما يستوجب ايضاحاً فها انا ذا قائل كلمة في هذا الشان اداء للواجب المفروض

انعقد المجلس وليس بين اعضائه الا احاد قليلون يعدون على الاصابع ممن أتيح لهم ان يحضروا مناقشات في مجلس من امثاله وليس منا احد ممن تدرب على جلسات مجلساته الا عضو واحد من مبعوثي حلب كان من اعضاء المجلس الاول المنعقد سنة ١٨٧٦ ولم يكن فيه فرق يتميز بعضها عن بعض ولا مجال للمباحثات الخاصة للقرار على رأي قبل انعقاد الجلسات العامة او بعدها ولم تكن الحكومة قد اعدت الموازنة المالية ولا اللوائح القانونية لعرضها على المجلس فقد كان الخبير في احوال المجالس النيابية يتوهم انهُ لا بد من مرور بضع سنوات قبل انتظام الخلل وسير مجلسي الاعيان والنواب على انتظام يضاهي انتظام مجالس الغرب . اما مجلس الاعيان فلأنهُ وان كان مؤلفاً من اعضاء مجربين محنكين فلا جنى لهُ القيام حق القيام بما أُعد لهُ مما لم تنتظم حالة مناقشات مجلس المبعوثان . واما مجلس المبعوثان فلأنهُ غير مدرب على مثل هذه الاحوال يهيم كلٌّ من اعضائه على وجهه وليس لهم خطة مرسومة يجرون عليها . تلك كانت الافكار السائدة في السنة الاولى . على انهُ لم يمر الزمن القليل حتى اخذ سوء الظن يزول . ولا اخشى الانتقاد اذا قلت ان الاوربيين انفسهم يدهشون الآن لما يرون مما اتاهُ مبعوثوكم في هذين العامين . وان انحى علينا بعض الاخوان باللائمة فاننا نتقبل منهم ذلك بحسن الظن وما هذا اللوم الا من بوادر الغيرة الوطنية . استأذنكم قبل كل شيء ان اورد اجمالاً المصاعب التي اكتنفتنا والطوارىء التي زعم المرجفون انها تهد عزائمنا وتؤدي الى تعطيل اعمالنا . لم نكد نتدرب على العمل ونأخذ في السير المنظم حتى دهمتنا حوادث مارس المعلومة لديكم فكادت تزعزع اركان هذه المملكة وقد كان اول المقصودين بالسوء مبعوثي الامة ولولا قليل لسفكت دماء اكثرهم ولكن الله منَّ بالفرج ويا لهُ

من فرج احرزناه بدم ثمين هو دم احد مبعوثي ولايتكم شهيد الحرية الامير محمد ارسلان الذي لا تزال الامة تندبهُ وتبكي شبابهُ وذكاءهُ وفضلهُ ونحن في ناصعة سلطنتنا نتلصص تتلصص المحكوم عليهِ بالاعدام ونفر فرار الاغنام من الذئاب ومع هذا فلم يأخذنا الجزع ولم ينسنا الحرص على ادائنا واجب ذمتنا فانسللنا واحداً واحداً الى سان استفانو وعقدنا مجلسنا قياماً وقعوداً في ناديها ووالينا نحن والاعيان جلساتنا الى ان وفد علينا جيشنا الباسل بقيادة شوكت باشا وكان ما كان مما تعلمون . مضى كل ذلك ونحن لم نكد ننظم شيئاً من امورنا فمددنا مدة المجلس الشهر والشهرين الى ان اتيح لنا النظر في الموازنة وبعض القوانين . وان حريق چراغان في هذه السنة لم يكن بالخطر القليل ومع هذا فلم نضع جلسةً واحدةً بل اجتمعنا ثاني يوم الحريق المشؤوم بغرفةٍ لا تكاد تسعنا وقوفاً ولم نبالِ في ذلك اليوم وما وليهُ من عدم استتمام معدات التدفئة والراحة في ذلك المحل والمحل الذي انتقلنا اليهِ بعد ذلك الى ان تمَّ بناء مجلسنا الحالي الذي بذلت حكومتنا سبيل بنائهِ همةً نادرة المثال فانتهُ ترتيباً وفرشاً بشهر واحد بعملةٍ ونظّار ومهندس جميعهم وطنيون واصلوا فيهِ العمل ليلاً ونهاراً . في هذه السنة ايضاً تمَّ تنظيم الفرق في المجلس فكانت فرقة الاتحاد والترقي ويبدها الاكثرية العظمى وفرقة الاحرار المعتدلين وفرقة الاهالي مع بقاء بعض الاعضاء كما في سائر المجالس غير منتمين الى فرقة من الفرق . وتمَّ فيها ايضاً بتنظيم الهيئة البرلمانية الدولية فكان لنا بها عقد ارتباط بسائر مجالس اوربا وكانت حلقةً ثانيةً في اتحاد الهيئة الصلحية العامة التي تيسر لنا الارتباط معها في السنة الماضية واوفد منها وفد ذهب الى انكلترا وفرنسا وكان لهُ ما كان من حسن التوفيق كما علتم ذلك في حينهِ

وقد كنا في هذه السنة نوالي الاجتماعات حتى في غير الايام المعينة وانتظمت احوال اللجان المعروفة بالكوميسيونات فكانت موازنتنا المالية على انتظام اكثر مما كانت عليهِ في السنة الماضية . وقد تيسر لنا النظر في اربعة وستين قانوناً ولائحة تمَّ التصديق عليها من المجلسين وصدرت الارادة السنية بانفاذها ونظرنا في كثير من الاستدعاآت العامة والخاصة مما يبلغ عشرة آلاف استدعاء . ولم نكن نغفل حيناً بعد حين عن الاستيضاح من نظارنا عن كل ما يبدو لنا فيهِ غموض او شبهة او ابهام . ولم نحاذر ان نناقشهم الحساب في الكثير والقليل واذا قيل اننا اضعنا في بعض المناقشات اوقاتاً على غير جدوى فأي مجلس لا تضيع فيهِ اوقات بمثل تلك المناقشات ولو مرَّت عليها عشرات الاعوام على ان الوقت الضائع في هذه الدورة الاجتماعية قد كان دون مثلها في الدورة الماضية ويسرُّكم ان تعلموا انهُ قد شهد لنا

كلّ من وقف على حقيقة احوالنا وحضر مباحثاتنا اننا وان كنا في حاجة الى تحسين وزيادة انتظام لقد بلغنا مبلغاً لا يمكن ان ينال اكثر منهُ في مثل هذا الوقت القصير

بقي عليّ إجابة لطلب الكثيرين منكم ان اوضح لكم شيئاً من نصيب مبعوثيكم من اعمال المجلس ومساعيهم خارجاً عنهُ مع ايراد اهتمامهم الخاص بمصالحكم. فليس يخافر عليكم ان جميع مبعوثي الولايات متكافلون في العمل وان مبعوث كل ولاية يعتبر مندوباً عن جميع الولايات وانهُ مهما اختلفت آراء الافراد وتعدّدت الفرق فالغاية واحدة الا وهي اعلاء شأن الوطن وخدمة ابنائهِ وهكذا فان مبعوثيكم وان كانوا من فرقتين مختلفتين لقد كانوا سواء في الخدمة وطلب الغاية المنشودة . وقد كان لهم اشتراك عامٌّ مع جميع اخوانهم في جميع اعمال المجلس في الجلسات العلنية والسرية ولجان فروع الاشغال . واني مورد لكم طرفاً من اعمالهم الخاصة فتعلمون انهم لم يكونوا دون رفاقهم غيرة على المصالح المرتبطة بها كلّ اعضاء المملكة اذ كلّ ما يصيب عضواً منها من سوء تتألم لهُ سائر الاعضاء وكما انتعش عضوٌ انتعشت لهُ سائر الاعضاء . فانهم اول من تنبه منذ انعقاد المجلس الى حالة اخوانهم المهاجرين وما يتاب البلاد من المضارّ بابتعادهم عنها فاقترحوا تأليف لجنة خاصة للنظر في امورهم فنال المجلس اقتراحهم بالقبول والف اللجنة المذكورة في الدورة الماضية وقامت بالعمل احسن قيام ثم تحوّل معظم اعمالها في هذه الدورة الى لجنة الخارجية وعلى رئاستها بعض مبعوثيكم فوالت العمل . واقترح بعض مبعوثيكم انشاء القنصليات على ما تقدّم فوازرهُ المجلس وجاد بالمال بسخاء مع ما نحن فيهِ من الضيق المالي . وقد كان لمبعوثيكم يدٌ غير قصيرة في البعثة التي ذهبت الى اوربا في الصيف الماضي فنالت الامة العثمانية تمثيلاً لم يكن يرجى مثلهُ في اول عهد حريتها ولم يكن اسم بيروت في اوربا باقلّ احتراماً من اي ولاية كانت من سائر الولايات . وقد كان لمبعوثيكم ايضاً اليد الطولى في انشاء هيئة الصلح الدولية سنة الماضية ثم انشاء الهيئة البرلمانية الدولية التي تنظمت في هذه السنة احسن تنظيم فتوطدت العلائق الودية بواسطتها بيننا وبين سائر نواب الامم الراقية ومنها الهيئة الكريمة المؤلفة من الاعيان والمبعوثان التي ذهبت نائبة عنا الى المؤتمر العامّ الذي انعقد في يومنا هذا في عاصمة البلجيك . واذ كان اعظم ما يعترضنا من العقبات اختلاف عناصرنا ومذاهبنا اقترح احد مبعوثيكم ان تؤلف جمعية مرتبطة باعضاء الهيئة الصلحية تمد لها فروع في جميع الولايات وتتضافر مع المبعوثين لاحكام رُبط الاخاء بين جميع العثمانيين ولقد صدقت هيئة الاعيان والمبعوثان المنتسبة اليها على انشائها وستقدم قوانينها الى الحكومة عند التئام المجلس لتعرف رسمياً بمقتضى القانون . وكان

لمبعوثيكم ايضاً سعيٌ معروف في تعضيد اللغة العربية وتقريب التفاهم بين العرب واخوانهم الترك كما انهم سعوا سعياً محموداً بدفع بعض الوشايات والنمائم التي كانت تنفثها صدور الخونة المتملقين . ولهم مساعٍ كثيرة وايضاحات جمة لجرائد اوربا واميركا الافرنسية والانكليزية ومخابرات طويلة دفعاً لتهم التي كانت تنشر عنها . وكانت لهم مؤازرة خاصة لاخوانهم نوّاب سائر الولايات العربية بما تعلق بمصالحهم الخاصة كرفع الاحتساب وبعض الرسوم غير المشروعة من ولايات اليمن وبغداد والبصرة . وبذل الجهد في التوفيق بين الارثوذكس من العرب واليونان في البطريركية الاورشليمية . وكتابات وايضاحات للاوربيين وغير الاوربيين في موافقة الدستور للشرع الاسلامي . ولهم ايضاً سعيٌ جهيد في ازالة الحيف عن المهاجرين القاطنين في بعض الاقطار القاصية . ودفع كثير من التهم الموجهة الى بعض الجرائد العربية . ووساطات وايضاحات لتعلق بمصالح بعض العشائر البادية

ولقد اتيح لبعض مبعوثيكم ايضاً ان يقوموا بايعاز او غير ايعاز بخدم اخرى نجتزئ بما مر عن ذكرها

اما مصالح ولايتكم الخاصة فلم يغفل مبعوثوكم عنها طرفة عين ولم يهملوا اشارة منكم الى امر جلل او يسير . شكوتم اليهم خوفكم من استيلاء الحكومة على مكتب الصنائع فازالوا هذا الخوف ورغبتم في اصلاح طريق العربات بين بيروت والشام فسعوا وحصلوا على الوعد القاطع من نظارة النافعة بالشروع في العمل بوقت قريب على نفقة الحكومة وفقاً لما تقرّر في مجلس المبعوثان . ابلغتموهم تظلم طلبة العلم المحصلين من الشرع بتجنيدهم فسعوا لدى نظارة الحربية قرأت مظلمهم حقاً فاجابتهم اليه . تظلمتم من قصر المدة المحدودة للمهاجرين المسلمين والمسيحيين للانخراط في سلك الجندية فراجعوا نظارة الحربية فاجابت بلا تردد ووسعت لهم فوق ما كانوا يرجون . تألمتم من جهل اعضاء المحاكم لسانكم العربي فاستلفتوا نظر نظارة العدلية فشرع في ازالة ظلامتكم . اعترضتم على اسناد تدريس اللغة العربية الى من لم يشأ عليها فسعوا لدى نظارة المعارف فوافقت على ما تريدون . حظر على اطبائكم وصيادلتكم التخرجين في المدارس الاجنبية ان ينتفعوا في خدمة المستشفيات والبلديات فسعى مبعوثوكم الى نقض الامر الصادر به فنقض على ما رغبوا ورغبتم . صدر امر آخر بفصل المحصلين لقلة تمكنهم من اللسان الرسمي فسعى مبعوثوكم لدى ناظر المالية فاستصدروا امراً بارجاعهم الى خدمتهم ولطالما سعى مبعوثوكم بما فيه صلاح الولاية التي انتدبتموهم عنها باشارة او غير اشارة منكم . وان تكن بعض مساعيهم اخفقت احياناً كاخفاقها في مد الطريق الحديدية بين بيروت ومصر

فان في ما فازوا به مقدار ما اخالهُ كافياً لاثبات صدق خدمتهم . هذا مثال من الخدم التي قام بها مبعوثوكم بصرف النظر عن كل ما اتوهُ من السعي بمعاونة الافراد من اخوانهم ابناء ولاية بيروت وغيرها بما يتعلق بمصالحهم الخاصة والرجاء وطيد ان ما سيقومون به سيكون اعظم وغاية ما نرجوهُ ان تقولوا اذا انتهت مدة خدمتنا بارك الله في مندوبينا فانهم كانوا لنا خداماً امناء

الحبر الاسود وكيمياؤهُ

كان الحبر يصنع من مطبوخ العفص ومذوَّب الزاج الاخضر اي كبريتات الحديد فاذا امتزجا اثر الواحد منهما في الآخر وتركب منهما تنّات الحديد فتى تعرض التنّات للهواء تأكسد رويداً رويداً واسود لونهُ وصار حبراً اسود يكتب به . فاذا مزج مذوب العفص بمذوب كبريتات الحديد وكتب بمذوبهما حالاً بعد مزجهما كان لون الكتابة ضعيفاً جداً ثم يسودُّ شيئاً فشيئاً فكانوا اذا صنعوا الحبر الاسود في الزمن الماضي عرضوهُ للهواء او طبخوهُ ليكتسب لونهُ الاسود قبل الكتابة به . ويعاب الحبر المصنوع كذلك بان بعضهُ يكون راسباً قبل الكتابة فلا ينفذ النسجة الورق ولا يجري القلم به . ولا يزال هذا النوع من الحبر معروفاً في الشرق ويصنعونهُ من العفص والزاج وبعضهم يفضلهُ للكتابة بالقلم العربي على الحبر السائل الافرنجي الخالي من المواد الراسبة . ومن انواعه الحبر الياباني

اما انواع الحبر الاسود المصنوعة في اوربا فمؤلفة ايضاً من العفص والحديد لكنها سائلة لا راسب فيها فاذا كانت كذلك يكون لونها ضعيفاً قبل ان تتأكسد فيتلافون هذا الامر باضافة بعض المواد الملوِّنة حتى تظهر الكتابة حالاً ثم متى تعرضت للهواء تأكسدت واتخذ تنات الحديد الذي فيها لونهُ الاسود المعروف . والمواد التي يضيفونها هي النيل او البقم او الانيلين على انواعه لذلك تكون الكتابة في اول الامر ضاربة الى اللون الازرق او الاحمر او الاخضر او البنفسجي حسب ما يضاف الى الحبر . فحبر ستيفنس وحبر بلاكوود مثلاً وهما اكثر انواع الحبر شيوعاً في هذه البلاد لونهما ازرق ثم يسودّ شيئاً فشيئاً لان المادة الملونة المضافة اليهما زرقاء

وقد قرأنا لبعضهم مقالة في الحبر وكيميائهِ وكيف يعرف الفرق بين الحبر الواحد والآخر وبين الكتابة القديمة والحديثة رأينا ان نقتطف بعض ما جاء فيها قال

لا يمكن معرفة نوع الحبر اذا كان مصنوعاً من العفص والحديد فقط لان انواعهُ كلها